Reading of " The Night Lover " collection of Nazik Almalaika

Assit . Lecturer.Maryam Abdulnebi

Abstract

The production of " The Night Lover " follows certain ways that reveal the female voice which in turn , shows the inner self thoughts in its dialogue about and with the other. The female voice will be manifested in the text memory as a symbol of a need which represents the spiritual stability . To connect the thought and visions which are based on a special philosophy , the author talks about the sorrow , life and death

These thoughts and visions are shown through describing some samples that mastered the text through the sad ,lost , dreams seeker woman who scared the unknown. Sadness is based on building relationships that reveal the sad inner self whereas the text of man relationship is based on an incident from which the personal experience results . On the other side , the incarnation of the same emotion in the text is through the connection between the experience with life and death , happiness and sorrow , fear and safty . The emphasis is continued to be on birth and life , while the gab between woman and man gets bigger and ends up with death

The implication that based on the philosophy of the "I", as far as death and life are concerned , appears to be systematic through intellectual dialogues producing singals and symbols revealing thoughts that show the "I" offer the same scale . This depends on following levels that reveal the basis of atendency that centered on life and death which shed their light on the soul and existence .

قـراءة في مجموعة [عاشقـة الليـل]
لنازك الملائكـة

م.م.مريم عبدالنبي عبد المجيد
جامعة البصرة / مركز دراسات الخليج العربي
قسم الدراسات اللغوية والادبية

مدخـــل :

تتشكل مستويات البنى التركيبية في نصوص نازك الملائكة عبر منظوم خاص يشفّ عن محاور دلالية تنفتح على هموم المرأة وفلسفتها في الحياة .

إنتاج النص في (عاشقة الليل) ينفتح على مسارات يتكشّف عنها صوت الأنثـى الـذي يفـرز تداعيات الذات في حوارها عن الآخر: ومع الآخر ، وهو كما صوّرته بأبعاده المستقرة في الـذاكرة ، رمز لحاجة تمثل الاستقرار الروحي المطمئن ، كما تحدّثت عن : الحزن ، الحياة ، المـوت ؛ لتقـيم ترابطاً بين أفكار ورؤى ومشاعر تتموضع في عالمها على فلسفة خاصة ، مفصحة عن ذات محورية تحتضن البؤرة التي ينطلق منها الكثير مما يجول في الخاطر الأنثوي من أفكار وتطلعات ، ومن هذه البؤرة تشكّلت مادتها الشعرية التي تمثل نصا مليئا بالحركة ، لتظهر من خلاله مواقف المـرأة تجـاه الوجود .

وقراءة متأنية لعاشقة الليل تضعنا أمام محور يشفّ عن هيمنة الحزن والخوف من الآتي ، جاءت القصيدة محاولة لبثّ هذا الحزن عبر أحداث وصراعات في زمن يتأرجح بين الماضـي والمسـتقبل المجهول ، وقد يكون زمنا فوضويا لاحدود له ، يتنافذ على إشارات تتشظى عن وحدات دلالية تتخطى حدود المنظور إلى فضاءات فكرية وروحية واسعة ، تؤطّر عالم المرأة وتجعل إرادتها تنفتح لتحقيـق سموّ الذات برؤية شعرية ورؤيا ذهنية تعول على قيم أخلاقية ، وأفكار تبنتها بفنية عالية لتعبـر عـن موقف خاص من الكون والإنسان تشكّلت ثيماته عبر تصوير عدة نماذج تكوّن منحنيات فضاء الـنص في المجموعة عبر : المرأة الحزينة والضائعة والباحثة عن الأحلام والخائفة من المجهول واليائسة .
ولقد أفاضت في وصف أحاسيس المرأة بالعذاب والوهم وظلم الحياة وخوائها ، جاعلة من ذاتها محوراً يصوّر إحساسها بمشاكل المرأة وأمانيها وثقل همومها واستعبادها الروحي .

وتتشظى المجوعة نظريا لثلاثة محاور تؤطّر رؤى نازك لهواجس المرأة خلال نسق دلالي يستحضر الكشف عن :

أحزانـــها :

الحزن في (عاشقة الليل) أهم ثيمة تجترح المجموعة ، وتكشف عن إقامة علاقات تفصح عن دواخل الذات المشحونة بالألم ، في نسق يستدعي أحداثا تستلهم ذات الحزن وترشّح تداعياته :

خدّر الحزن حياتي وطواها
لم تعد تعنيني الآن الحياة
أبدا ينطق باليأس دجاها
وتغنّي في فضاها العاصفات(١)

هذا النص يؤكد تأشير نمط من العلاقة تنحو إلى بناء سياق ينجرّ إلى وصف الحياة اليائسة، عبر ترميز يبثّه الإتكاء على مشاعر الحزن ، ليمظهر التقابل الحاد بين الحياة كوجود حرّ، والحزن كمبتدأ حالة تترشّح خلاله ؛ أما حينما تقول:

شردتْ روحي ، وغابت عن عياني
صور الحاضر والماضي السحيق
وامّحى في خاطري ذكْر الزمان
وتلاشت ذكَر الدهر المحيق
ليس إلاّ الحزن يمشي في كياني
وأنا في ظلمة الليل الصديق(٢)

فإن بروز عامل الزمن يتداخل مع الحزن الذي يكشف عن دلالة سابقة على النص ، ونستطيع أن نلحظ المزاوجة الانتقائية التي أقامتها بين غياب صور الماضي وظلام الليل، لتدعم إقامة تتابعات تسعى لإبراز القيمة المعنوية لانتهاء الماضي ، والذي سيكون المنطلق الذي يؤشّر انفتاح فضاء آخر، ينثّ عنه الارتباط الذي أقيم مع الليل ، ليرمز إلى حضور دلالة الضياع.

ويتبدّى الحزن عند الشغل على الكتابة الإبداعية أفقا يستثير فلسفة تستجيب لمعطيات الوعي المخزون في الذاكرة ، حول إدراك المحسوس من الأشياء والظواهر التي تشفّ عن أوجه تفصح عن عوالم خفية في النفس حينما تتعالق بالحياة مرّة ، وبالزمن الجميل أخرى ، لتتنضّد حين القول به اللحظات السعيدة وتتهاوى إلى الزوال ؛ وقد يصبح ذاك الحزن صورة للثورة والتمرّد:

مهلاً ، ولا يخدعك حزن حائر
في مقلتيّ ، ودمعة تتنهّد
فالحزن صورة ثورتي وتمرّدي
تحت الليالي ، والألوهة تشهد[٣]

فمدار تكرار مفردة الحزن بصيغها المختلفة في المجموعة والتي ترددت(١٢١) مرّة ، يكشف عن حالات وهواجس ودلالات تتضمن من الرؤى ما يضيء مستويات عالية من العالم الـداخلي لنفسـية المرأة وتصورها للوجود المحيط بها ، والذي ينزّ عن قيود قاسية وأحكام مريرة تقف أمامها عـاجزة لاحول لها ولاقوة ، فتقول:

إنه يوم مولدي ، يوم أحزاني
وذكرى الرسوّ عند الضفاف
حينما أوقفتْ سفينتي الأقدار
بين الأمواج , تحت السواقي [٤]

وتقول:

أسري كما ترسم المقادير لي إلى حيث لسـت أدري
شـريدة في دجى حياتي سادرة في غموض دهري
فـخافق شـاعر، وروح قـال لـها الدهرلاتقـرّي
وناطهـا بالـذرى تغنّـي وتنظـم الكون بيت شـعر[٥]

بالعودة إلى هذين النصين نستطيع رصد الآتي: الربط بين مشيئة القدر ومشاعر الحزن ، وهـذا الربط يمتلك حضورا يعطي صورة إشارية تنفتح على مرجعيّة يستعاد فيها تسجيل ما يختزنه وعـي الذات حول قضاء الحياة وكشفه في آن ؛ وذات الرؤى في عالم الحزن تأتي في مرات كثيرة متعالقـة مع الحلم أو المتمنّى ، في محاولة لإعادة تشكيل عالم جميل ينفصل عن متواليات الواقع المؤلم ، وإن كانت الأنا في الحلم أو في الواقع الأصيل لا تنفصل عن استقصاء أحزانها العالية ، فتقول:

ليت قلبي قد كان صخرا أصمّا
كل يوم يبني رجاءً جديداً
ليته كان جامد الحسّ ، كالطين ،
يعيش الحياة جذلاً سعيداً
ليته لم يكن ،
وياليتني أعتاض عنه حجارةً أو حديدا [٦]

التكرار المتشكل في النص لكلمة (ليت) يرشح إدراكا نفسيا وشعوريا للحاجة العميقة بالتخلص من الحزن باتجاه آفاق أخرى تعمد إلى تغيّرات في سياق سيرورة الحياة الحزينة بافتراض صيغة التمني ؛ ومنها قولها :

خذني إلى العـــالم البعيـــد
يا زورق السحر والخلود
وسرْ بقلبي إلى ضفـــاف
توحي إلى القلب بالقصيد
جزيرة الوحي ، من بعيد ،
تلـــوح كالمأمـــل البعيـــد
الرمـــل في شطّها نديّ
يرشف من دجلة البرود (٧)

فنازك كانت تستند إلى رؤيا فنية ورؤية واقعية لعالم المرأة ، حين راحت تجسد فـــي قصـــيدتها وعبر اللغة رمزا يمثّل ألمها حالة وموقفا ، ومن الملاحظ ((أن شعر نازك الملائكة على امتداد نتاجها الشعري ، يشع فيه توظيف الرموز))(٨) ؛ وإذا كان الحزن ثيمة مهيمنة على نصـــوص المجموعـــة ، فإنها من خلال ذات الرمز الذي تفتحه في أبعاد متعددة ، تسعى إلى تأصيل ســـمات ملازمـــة لواقـــع المرأة، وخصوصيتها ، في تمحور يبحث مفاهيم تنضوي خلال علاقاتها المقامة مع الآخرين والكون، فكانت نصوصها رموزا تستحضر الحزن في: فقدان الآخر، عبث الحياة ، الخوف مـــن المجهـــول ، الموت ، والتمرّد حينما تقول:

مهلاً ولا يخدعك حزن مـــلامحي
وشحوب لوني وارتعاش عواطفي
وإذا لمحـــت على جبيني حيـــرتي
وسطـــور حزني الشاعريّ الجارف
فهو الشعور يثير في نفسي الأسى
والدمع في هول الحيـــاة العـــاصف
وهي النبـــوة لم تطـــر فتمـــــرّدتْ
بالحزن ، في وجه الحياة الكاسف(٩)

ولكن برغم هيمنة موضوع الحزن على المجموعة في قصائد قد تبدو للقاريء مكررة، لكنها تتغير دلاليا من الرفض إلى البكاء إلى السكون إلى قبول الواقع أحيانا مثلما هو، مفترضة انفتاح منافذ تؤهّل

النص لكشف مراحل تتبنّى رصداً واعيا يلقي الضوء على تحوّلات دواخل المرأة المتحضرة ، منطلقة إلى العالم برؤيا تعبر عن موقفها في الحياة ، وإحساسها بالغربة في مجتمع انهارت فيه النوازع الأخلاقية الراقية .

وكان مصير الإنسان وما يلاقيه من أزمات يثير قلق نازك ويؤرّقها ، فتضم أحزان الآخرين إلى حزنها ، ويرهقها الظلم والاستعباد ، مما يجعلها حاقدة على الحياة مستنكرة لها ، فرأينا ((الحزن في بواكيرها الشعرية يصدر عن نفس مشككة في الوجود ، متسائلة عن جدوى الحياة))[١٠] ، وكان النص في هذه المنطقة بالذات يمتلك لديها شفرة تضيء مكونات نهج خاص لتوجهات مدفونة في الذاكرة ، تفرز ملامح مرتبطة بالذات الأنثوية التي تمثّلها، فتتساءل:

أترى أبصرت عيونك في الأرض
كما أبصرت عيوني شقاها ؟
أرأيت الأحزان في كل قلب ؟
ورأيت النفوس في بلواها
أسمعت الصراخ يرسله الأحياء
والأرض أغرقتها دماها ؟ [١١]

الرجل في حياتها :

تميل نازك في حديثها عن الرجل [١٢] إلى الارتفاع به ، فتناديه الأنا في ذاتها: شاعري ، طائري الحرّ ، نشيدي [١٣] ، ... ؛ ليسمو بعد هذا حتى يكون نبياً في قصيدة (الخيال والواقع) ، وهذه الثيمات تمثل وحدات كاشفة لمستويات الشعور الموجه نحو الرجل ، هذه الثيمات مظاهر للشعور ذاته في اتجاهاته وحالاته المتبدّية في التجربة التي وطّدت مفارقات خاصة بينهما (هي وهو) ، وعندما تتحدث عن حاجتها إليه تحاكي أوضاع النفس الأنثوية وما ينتابها من هواجس عندما تقع في الحب ، فكانت نصوصها تتسع لمجالات تفصح عن دواخل خفيّة في الذات،حين ذهبت ترسم صورة الحبيب وظلال الأجواء التي ضمتها معه في لحظة نادرة:

منذ عام ، في الشارع الصاخب الممتدّ ،
والشمس في صفاء الأثير
جمعتنا هنالك الصدفة الحلوة
في غفلة من المقدور
والتقينا، لم نبتسم ، لم أحدثك
بما في فؤادي المعصور[١٤]

لكن هذه اللحظات سرعان ما تنقضي ، لتسلمها إلى المعاناة والعذاب ، حيث الجوع الروحي بعد الارتواء ، والظمأ إلى الأمان بعد انقطاع الوصل:

ذهب الأمس بأوهام فؤادي ومحاها
فـــإذا قلبي عبد ولقـد كـان إلها
آه فارأف بفتاة حطّم الدهر منـاها
وأفاقت ليهدّ الحزن واليأس قواها (١٥)

ولكنها ما أن تفيق على عمق مأساتها ، حتى يسيطر عليها هاجس اليأس فتشعر بالإغتراب والوحدة:

كلّ صوت في الدجى رعب جديد
عند من قد كان مثلي مفـردا
ذا فؤاد مرهف الحسّ شـريد
دفن الأمس ولم يرج الغدا (١٦)

والأنا في موقفها هذا عمدت إلى مجمل ما تشعره المرأة تجاه الآخر، فتكتسي نصوصها طاقات تعبيرية لا تملكها غير الأنثى ، حين ترسم أحاسيس المرأة في علاقتها معه ، وهذه الطاقات التعبيرية لم تأت من تعالق للتجربة مع المتن النصي للقصيدة باعتباره محورا لا بدّ من تموضعه في كل حالة ، إنما هو إفراز خاص للذات الشاعرة التي مرّت بالتجربة فصاغتها شعراً.

ويستند النص في (عاشقة الليل) عبر هذا المنحنى إلى محورين أساسيين هما: الوصل والفراق , وما يتفرع منهما ، يشفّ الأول عن : السعادة ــ الأمان ، أما الثاني فيشفّ عن : الشقاء ــ الضياع واليأس ؛ وبين هذين المحورين تنتقل طقوس المشاعر بالإتّكاء على تجربة الحب التي تمثل بقايا واقعة مزاحة ، لتقيم قطبي المعادلة: التجربة الذاتية بانفعالاتها من جهة ، يقابلها في الجهة الأخرى تجسيد ذات الإنفعالات في العمل النصي , فتقول :

رحمة ، ماذا تراني أفعل الآن بفنـــي؟
هي ذي آلهة الشعر فهل تمسح حزني ؟
هو ذا العود فهل يسعد روحي أن أغني؟
رحمةً بي ، ما الذي قد أبقت الأحزان مني؟ (١٧)

فيبدو الشعر ذاكرة تؤطر علاقتها مع الآخر عبر ترابط جدلي بالتجربة مع معطيات : الحياة والموت ، السعادة والألم ، الأمان والخوف ؛ وبينما يدلّ التواصل على الميلاد والحياة ، تتصرف الفجوة بينها وبين الرجل إلى الموت والنكوص ، مما يفرز اغترابا يهيمن على النفس ، فلا تعد ترى

جمالات الأشياء إلاّ في الماضي حيث العودة إلى رحم الوصل ، لتقيم حوارا بين إشارات يتدخل فيهـا الزمان والمكان والأحداث والفكر وأشياء أخرى تركت لها مهمة الإفصاح عن هواجسها وتسميتها:

أين مني حرارة الامس
والحاضر يمشي بين الأسى والخمود؟
أسفا للماضي الإلهي ،
هل ماتت أغانيه في فؤادي الوحيد؟
آه يا شاعري ، لماذا تهاويت بعيداً ،
وراء أمسي البعيد؟
وأنا لم أزل صلاة لعينيك
وإعصار لهفة وشرود (١٨)

يكشف النص عن أحداث وأزمات وهواجس تفد على الذات مترشّحة عن زمـن حمـيم مضـى، فتؤسس على ذات الزمن رؤى قارّة في أعماق الشعور تؤطّر بها إسقاط مفاهيم تشفّ عن التجربـة ، بعد أن فقدت نظامها المنطقي لحظة الفراق ، لتسلمها إلى الخواء والفارغ المستبدّ ، وبين هذين القطبين يتناغم المبنى الشعري ، ليضم صور التفكك والخراب الماثل في الأشياء لحظة الجدب ، تقول :

ضاع عمري في دياجير الحياة
وخبتْ أحلام قلبي المغـــرق
ها أنا وحدي على شط الممات
والأعاصير تنـــادي زورقي
ليس في عيني غير العبـرات
والظلال السود تحمي مفـرقي
ليس في سمعي غير الصرخات
أسفا للعمر ، ماذا قد بقي؟ (١٩)

وإن كانت في مرات كثيرة تنأى إلى الحلم ، لكن يبقى المستبدّ بدءاً وانتهـاء : فقـدان الآخـر ، والحنين إليه ، وهذا الدوران بين الحلم والواقع الحي في ثيمات النص الشعري يقوم على رغبة كامنة في الوعي يدعمها تمني حدوث انكسار في الواقع فتقول:

فلتسرْ يازورقي بـروحي
قد آن أن يستفيق عودي
وآن للشـــعر أن يـغني

بالحلم الضاحك الشـــرود
حلمي ، وقد صغته نشيداً
يهشّ ، من سحره ، وجودي[٢٠]

وهذا الإشكال الذي تدور الذات في حلقته يخص وعي الأنا الأنثوية للحياة ومصدر السعادة فيها ، ومن هنا نلاحظ بروز لغة الذاكرة ، لاسترجاع الماضي الهارب ، أو الإفصاح عن الأمل في نسـيانه لبدء مسيرة الحياة في فضاء آخر ، فجاءت نصوص المجموعة بين هذين المحورين تحمل سمات البعد الأول في القصائد : بعد عام ، الخيال والواقع ، ذات مساء ، أشواق وأحزان، نغمات مرتعشة ، ذكرى مولدي ؛ والمحور الثاني ينتشر في القصائد : الخطوة الأخيرة ، على الجسر ، ليلة ممطرة ، العـودة إلى المعبد ، قلب ميت ، السفينة التائهة ، الحياة المحترقة ؛ تكرار التأكيد على هذين المحورين يكـوّن تتابعا يضيء جوهر الدلالة المحيلة إليها كوامن الذات في بعدها النفسي الخالص .

وكان مسار التتابع عبر نصوص (عاشقة الليل) في ذات المنحنى يبدأ من لحظة الاتصال وهـدير الأمان ، لتشوبه من ثمّ حالة الفراق ، فتصبح الحياة مرتبطة بتلك اللحظة الجوهريـة الفاصـلة بـين زمنين، ولتكون ذات اللحظة هي المهيمنة والمستبدّة بالحاضر والمستقبل ، فنجد ثيمات تتحدث عـن الرجل في مفاصل نصوص تعبّر عن فلسفتها في الوجود والحياة والموت ، تأكيد النص الشعري لهـذا البعد وتكراره يكشف عن اضطراب نفسيّ ترك آثاره في المبنى الشعري الذي تبنّى مهمـة اسـتعادة اللحظة ذاتها وما ترشّح عنها :

عدْ ، لم يزل قلبي نشيداً حالماً
يشدو بحبك لحنة المفتون
عدْ ، فالكآبة أغرقتْ بظلامها
روحي ، فليلي أدمع وشجون
عدْ ، لا تدع نفسي يعذبها الأسى
ويعضّ فيها خافق محزون
عدْ فالحياة – إذا رجعتَ – أشعة
ومشاعر سحرية وفتون[٢١]

فلسفتها في الحياة والموت :

الدلالة التي تتشكل في هذا البعد تنتظم عبر حوارات فكرية تتشظّى عن إشارات ورموز تتبعـث معها هواجس تتثّ عن رؤى الذات وفلسفتها للحياة والموت ، تقول:

ضاق يا صيّاد في عيني الوجود
بالكون سرّه لا ينجلي
كل ما فيه إلى القبر يقود
ما الذي يبقى لنا من أمل؟ (٢٢)

يبدو التساؤل شفرة تفتح مجالاً لتتابع أفكار تضيء شكوكاً خاصة في الوعي ، ولتضـفي قيمـة تتشارك في المعطى الدلالي اللامباشر الذي يمتلك النص ، حينما كانت الأنا تتألم من خـواء الحيـاة وحتميّة الموت :

وأنا يا حياة ، ماذا سألقى؟
هل سأغدو لفظا جفته المعاني؟
هل ستطويني الليالي وتلقي
فوق عمري دياجر النسيان؟
وغدا يطفئ الزمان سراجي؟
ويضيع الردى صدى الحاني؟
ثم أغدو بين التماثيل تمثالاً؟
وأمحى من الوجود الفاني؟ (٢٣)

ليشتدّ اليأس ويستحيل إلى كآبة مضنية تستبدّ ، بعد أن أدركت إن المستقبل لم يكن إلا وهم سراب خادع يشهد الموت بفنائه:

أي معنى لطموحي ورجائي
شهد الموت بضعفي البشري
ليس في الأرض لحزني من عزاء
فاحتدام الشرّ طبع الآدمي
مثُلي العليا وحلمي وسمائي
كلها أوهام قلب شاعريّ
هكذا قالوا ...فما معنى بقائي؟
رحمة الأقدار بالقلب الشقيّ (٢٤)

ثم أخذت الأنا توسّع من دائرة الشك التي تتخبّط بها حول موقف وموقع الإنسان مـن الوجـود، وصراعه مع الحياة بين الأمل واليأس والفناء ، وهنا تفتح تأملاتها في أسرار الكون ، لتنزع في أكثر

من موضع في المجموعة إلى نوع من التأمل الفلسفي الذي يؤشر منهجا دلاليا مرتبطا بـذات الفكـرة المبثوثة عبر المتن الشعري المحمّل بأسئلة حائرة تمتلك الذات وتبرز عبر منحنيات النص وأوديته :

وهذه المقبرة المظلمة

نهاية المسعى ، فيا للشقاء

أبعد هذه الجنة الملهمة

نسقط ، فوق الشوك ، صرعى الفناء (٢٥)

وتتراءى عبر البعد النصي صور الطبيعة بتعدد مظاهرها : الضفة ، صوت الأمواج، الأنسام ، الليل ، الغيوم ، همس السواقي ، النهر ، طاحونة القمح ، الجرف ، الطير ، الأغنام ، النجم ، الريح ، الشاطيء ، البحر ، الزورق ، الشمس ،... ؛ لكنها في هذا المنحنى تشكّل رؤيا تتعالق مع هـواجس النفس المسيطر عليها أفكار تتجّه لتغييب الجمال المبثوث في الكون الذي تسكنه بعد توحدها ، فتقول:

الماء يبدو وادعا ووراءه الألم العميق

أمواجه السمّ الزعاف وإن بدا حلو البريق

كم زورق خدعته جنياته ورسومه

كم حالم أودت به أمواجه وسمومه (٢٦)

كما نلاحظ قوة خضوع الذات ليقين الفناء ، وزوال الأشياء بلا جدوى ، فنراهـا منهزمـة أمـام الموت كارهة له ، وفي أحيان أخرى نراها تؤثره بعد أن سأمت من الحياة وتفاصيلها الفانية ، فتقول:

لا أريد العيش في وادي العبيد

بين أموات .. وإن لم يدفنوا...

جثث ترسف في أسر القيود

وتماثيل احتوتها الأعين

آدميون ولكن كالقرود

وضباع شرسة لا تؤمن

أبدا أسمعهم عذب نشيدي

وهم نوم عميق محزن(٢٧)

وهذا الإنتقال يبرز الحيرة التي تنتاب وعيها حول قيمة الموت فيكون الموقف منقسما عبر هاتين الإحتماليتين لتنبعث عبر فضاء النص الذي يرشح أبعادا أعمق في الحياة وفي عالم المـوت ، ومـن محوري هاتين الفكرتين حاولت أن تفسّر مظاهر الوجود برؤية شعرية خاصة.

وترى الأنا أن العالم الذي تتمنى أن تكون فيه غير موجود ، لكنها تجد في الحلم أنموذجا تحاول أن تتخطى فيه قسوة الواقع المرّ مرتكزة على بناء انتماء آخر لمجال أرحب في محاولة لإعادة تنسيق العلاقة بين الإنسان وعالمه ، تقول:

قد سئمت الواقع المرّ المملاّ
ولقد عدت خيالا مضمحلاّ
فاتركيني بخيالي أتسلّى
آه كاد اليأس يعروني ، لولا
أنني لذت بأحلام السماء
وتخيرت خيال الشعراء (٢٨)

وكانت الصدمات القاسية التي واجهت نازك منذ صباها ، تغذي ضعفها فيكبر ، ويكبر معه انكسارها أمام أقدار الحياة وأخلاقياتها غير السوية ؛ يقول شقيقها إحسان الملائكة: ((أما نفسها الكبيرة المرتفعة عن الصغائر ، فقد جلبت لها خاصة في مطلع شبابها ضروبا من الآلام ، عكستها بجلاء ووضوح قصائدها)) (٢٩) ، ولهذا السبب كانت تناجي مكامن الطفولة بداخلها كلما اشتدت هواجس الحنين إلى البراءة ، محاولة أن ترسم صورة لعالم جميل تشعر فيه بالإطمئنان والسكينة ، وتعبّر عن هذا المحور قصيدة (ذكرى مولدي) التي أهدتها إلى صديقة طفولتها كاملة ، ومنها قولها :

أسفا ، ضاعت الطفولة في الماضي
وغابت أفراحها عن جفوني
وهي ، لو تعلمين ، أجمل ما يملك قلبي وما رأته عيوني
حينما كنت طفلة أجهل السرّ
وأحيا في غفلة من شجوني
كالعصافير ، أملأ الدار لهواً وغناءً
وأستحب جنوني (٣٠)

وفي عودة نازك إلى الماضي ، وتصوُّر أحلامه ، ردّة فعل لمحورين: الأول : قسوة الإنسان على الإنسان ، الثاني: النزوع الذاتي للعودة إلى تجربتها الماضية ، التي كانت في وعيها ولا وعيها هي الحياة ذاتها ؛ ((ومن ثم تجد نازك نفسها تنتقل من الفكرة الميتافيزيقية للزمن ، من حيث هو قوة منفصلة تصارع الآدميين ، إلى تصور الواقع الزمني في مراحله الثلاث الماضي والحاضر والمستقبل، وأكثر ما يغلب على تصورها إن الماضي ميت ، وإن المستقبل كذلك ميت))(٣١) ؛ ولعل إحساسها

بالموت كونه النهاية الأكيدة للأشياء ، ما يجسّد مأساتها الفكرية والشعورية ، فكانت تتمثّل الموت وجها لوجه ، فوجدناها ترثي نفسها في : بين فكي الموت ، على حافة الهوة ؛ وترثي الآخرين كما في : المقبرة الغريقة ، مرثية غريق ؛ وتقف ((أمام الموت موقف الحائر الحاشر ، المتسائل، المأخوذ ، مما يقربها من (مدرسة القبور) ــ في الشعر الإنكليزي ــ التي ظهرت منذ منتصف القرن الثامن عشر))[٣٢] .

وكان موقف نازك من الموت يأتي في نصوصها باعتماد محاور تشفّ عن :

١ــ الموت ظلام وسكون أبديّ ، تقول:

أيها الموت ، وقفة ،
قبل أن تغري بجسمي سكونك الأبديّا
آه دعني أملأ عيوني من الأنوار
وارحم فؤادي الشاعريّا [٣٣]

٢ــ الظمأ إلى متع الكون ، كقولها:

ها أنا ، بين فكّي الموت ،
قلباً لم يزل راعشا بحب الحياة
وعيونا ظمأى إلى متع الكون
تناجي مفاتن الأمسيات [٣٤]

٣ــ تصوير الموت أنه : أفق مرعب رهيب المعاني ، فتقول:

ها أنا ، عند هوّة الزمن المظلم
بين الأموات والأحياء
من ورائي صباي
بين الأناشيد ، ولهو الطفولة الحسناء
وأمامي وادي المنايا ،
قبور ، في ظلال المنيّة الخرساء
أفق راعب رهيب المعاني
ضمّ أرجاءه الدجى اللانهائي [٣٥]

٤ــ استحضار مفردات الموت كالرفات ، القبر ، التكفين ، الجثة ، الدود ، ومنها قولها:

يا ضجة الإعصار لا تملأي
آفاق هذا العالم المشتكي

وأنتِ يا أمواج لا تهزأي
بذلك الطافي على وجهكِ
لم يبق منه الدود شيئاً يرى
ولم يذر منه الردى باقيا
هذا الرفات الكالح المزدرى
قد كان بالأمس فتىً لاهيا(٣٦)

٥ــ هزأ الموت من مباهج الحياة ، كقولها:

أهكذا تفنى أغاريدنا
ويهزأ الموت بأزهارها
وتملأ الدنيا أناشيدنا
يوماً ، وننوي تحت أحجارها (٣٧)

ووجدنا الحديث عن الموت ينفتح على ثنائية ضدية ، مقابلة بين ظلام القبر: نور الحياة , الظمأ للمتعة: ترحيب بالموت , رهبة الموت: مناجاة مفاتن الحياة .

وكان الموقف من الحياة والموت يتداخل في قصائد (عاشقة الليل) ، ويكون التوجّه نحو أفق آخر هو السمة البارزة ، باتجاه النكوص إلى الماضي ، أو باتجاه الآتي ، مع فيض الأسئلة التي تترشّح عنها رغبة عالية في تسمية الأشياء والظواهر، والتوق إلى مدن تحمل فضاءات نقية ، تقول:

سوف تصفو الأمواج في لجّة النهر
ويخبو الإعصار خلف التلال
وتعود النخيل تضحك للشطّ
كما كنّ في الليالي الخوالي
ويعود الملاح يخرج بالزورق
هكذا يرجع الصفاء إلى الوادي
ويغفو على جمال الليالي (٣٨)

ومن هذه الرغبة يتشكّل مظهر خاص لعلاقة الذات بالوجود الكائن والوعي بهذا الوجود عبر ركائز معرفية رشّحتها الثقافة العالية للأنا ، ولتدخل ثيماتها في النص الشعري بافتراض أسئلة تحتاج أكثر من قراءة وأكثر من تأويل :

مـاذا وراء الحياة ؟ ماذا ؟ أي غموض ؟ وأي سرّ ؟
وفيم جئنا ؟ وكيف نمضي ؟ يازورقي ، قل ، لأي بحر ؟

يدفعـك الموج كـلّ يـوم أين تـرى آخـر المقـرّ ؟
يازورقي طـال بي ذهولـي وأغرق الوهم جوّ عمـري [٣٩]

وقد حملت الذات أسئلتها في كوامن الذاكرة ، وهي تبحث عن معنى للوجود ، وجدوى الحيـاة ، لتأخذ أكثر من مكان في وجدان شعرها .

ويبدو لنا أن قراءة (عاشقة الليل) تقود إلى تأسيس سمة ترتكز تمحوراتها حول الحياة والموت مع انفتاحات هذين المحورين وتشظياتهما على النفس والوجود ، وحيث التشتت بين المـوت : (سـقوط وفناء الأشياء) ، الإنتظار : (الحلم والرغبة في عوالم أجمل) ؛ لكنها غالبا ما تغادر الحلم لتـرزح تحت وطأة الواقع السقيم ، وقسوة الحياة على الأحياء ، وكان النص يكشف التنـاقض بـين المتمنّـى والواقع ، ويكشف عجز الفكر في التوفيق بين الاثنين بتراكم الأسئلة التي تتركها عائمة ، لتشفّ عـن العقم والسقوط والإحساس بالفناء ، وتتصاعد هذه المفاهيم بتتابع توحي به نفسية نازك في علاقتها مع الحياة والحب والموت ، ورغبتها في الوصول إلى الحقيقة، لكن الحقيقة التي تبحث عنها في رؤياهـا الشعرية والشعورية عبر جدلية الموت والحياة لم تجدها ، فتقرر:

ياليل ، ما نفع الأسى ، يا بحر ، ما معنى الدموع ؟
النوء يصخب داويا ، والموج يهزأ بالقلوع
أنى تسير سفينتي الحيرى إذن؟ أنى الرجوع ؟
فلنمض للمجهول ، ذلك وحده ما نستطيع [٤٠]

وكان إحساسها بالموت والحياة وجدواها يتعالق في عملها الشعري فيبدو النص مزيجا من أحداث تشير إلى علاقات ورموز تنمّي الدلالات وتعمّقها ، ((فهي تختار فكرة قصيدتها ، وتحللها ، وتضيف إليها من ثقافتها الواسعة ، وتحرص كل الحرص على بناء قصيدتها بناء فنيا مدروسا)) [٤١] ، لتبـدو محمّلة بسمات تكشف عن تداخل في الفكر والواقع ، يترشّح نهجه وفق أسلوبية المتن الشعري الـذي يمتكله .

خاتمـــــة :

إنتاج النص في (عاشقة الليل) ينتهج مسارات يتكشّف عنها صوت الأنثـى الـذي يفـرز تداعيات الذات في حوارها عن الآخر ومع الآخر , ليبدو في ذاكرة النص رمز لحاجة تمثّل الإستقرار الروحي المطمئن ؛ كما تحدثت عن : الحزن , الحياة , الموت ؛ لتقيم تعالقا بين أفكار ورؤى تتموضع في عالمها على فلسفة خاصة , تتمظهر عبر تصوير عدّة نماذج تمتلك فضاء النص فـي المجموعـة عبر: المرأة الحزينة والضائعة والباحثة عن الأحلام والخائفة من المجهول واليائسة .

ويلتزم القول بالحزن إقامة علاقات تفصح عن دواخل الذات المشحونة بالألم فـي متواليـة تستدعي أحداثا تشفّ عن ذات الحزن وترشّح تداعياته ؛ بينما يستند النص عبر القول بالعلاقـة مـع الرجل إلى تمثّل بقايا واقعة مزاحة يتفلّت عنها التجربة الذاتية بانفعالاتها من جهة , يقابلها تجسيد ذات الإنفعالات في العمل النصي عبر ترابط جدلي بالتجربة مع معطيات : الحياة والموت , السعادة والألم , الأمان والخوف ؛ وبينما يدلّ التواصل على الميلاد والحياة تنصرف الفجوة بينها وبين الرجـل إلـى الموت والعقم .

وتبدو الدلالة المنتهجة ترسيم القول بفلسفة الأنا حول الحياة والموت منتظمة عبر حـوارات فكرية تتشظّى عن إشارات ورموز تنبعث معها هواجس تنثّ عن رؤى الأنا لذات المنحنـى باعتمـاد مستويات تشفّ عن تأسيس سمة ترتكز تمحوراتها حول الحياة والموت مع انفتـاح هـذين البعـدين وتشظياتهما على النفس والوجود .

الهـــــوامش :

(١) الملائكة , نازك , عاشقة الليل ، ١١٣.

(٢) السابق ، ص ٧٥.

(٣) السابق ، ص ٢٨.

(٤) السابق ، ص١٨.

(٥) السابق ، ٨٧ .

(٦) السابق ، ص١٤.

(٧) السابق ، ص١١٥ .

(٨) حسين , مسلم حسب , الرمز في الشعر العراقي المعاصر (رواد الشعر الحر) ، ٨٨.

(٩) الملائكة , نازك ,٣١ ؛ ينظر: قصيدة (عاشقة الليل) ، ٨١ ، قصيدة (إلى عينيّ الحزينتين) ، ٩٥.

(١٠) الناصر, محمد قاسم نعمه , الأثر الإسلامي في الشعر العراقي الحديث (مرحلة الرواد) ، ٤٦ .

(١١) الملائكة , نازك , ١٧؛ ينظر : قصيدة (سياط وأصداء) ، ٥٦ ، قصيدة (المقبرة الغريقة) ، ٦٢ .

(١٢) كانت نازك تعبر عن تجربة صادقة ، عاشتها فعلاً في سنين دراستها في دار المعلمين العالية (١٩٤٠-١٩٤٤) ، أكدت واقعية هذه التجربة زميلتها في الدراسة الشاعرة فطينة النائب في مقابلة شخصية مع الباحث علي محمد حسين الخالدي ؛ ينظر : الشعر النسوي في العراق (مضامينه وخصائصه الفنية من الحرب العالمية الثانية حتى ثورة تموز ١٩٥٨) ، ٤٠ ، ٤١.

(١٣) ينظر ، الملائكة , نازك , ٦٠، ٨٩ ، ٩١.

(١٤) السابق ، ص١٤١ .

(١٥) السابق ، ص١٤٤ .

(١٦) السابق ، ص٧٩ .

(١٧) السابق ، ص١٤٦ .

(١٨) السابق ، ص٨٨ .

(١٩) السابق ، ص٢٤ .

(٢٠) السابق ، ص١١٦ .

(٢١) السابق ، ص٥٩ .

(٢٢) السابق ، ص٥١ .

(٢٣) السابق ، ص١٠٧ .

(٢٤) السابق ، ص٢٦ .

(٢٥) السابق ، ص٦٧ .

(٢٦) السابق ، ص٩٢،٩٣.

(٢٧) السابق ، ص٢٦ .

(٢٨) السابق ، ص١٢٩ ؛ ينظر : قصيدة (جزيرة الوحي) ، ص١١٥.

(٢٩) الطائي , علي , نازك الملائكة ، ١١٥ .

(٣٠) الملائكة , نازك ,١٥ .

(٣١) عباس , إحسان (دكتور) , إتجاهات الشعر العربي المعاصر ، ٩٤.

(٣٢) الكبيسي , طراد , شجر الغابة الحجري ،٨٠ .

(٣٣) الملائكة , نازك , ٣٦ .

(٣٤) السابق ، ص٣٥.

(٣٥) السابق ، ص٣٦ .

(٣٦) السابق ، ص٦٥-٦٦ .

(٣٧) السابق ، ص٦٦.

(٣٨) السابق ، ص١٧٥.

(٣٩) السابق ، ص٨٧.

(٤٠) السابق ، ص١٣٥.

(٤١) النقاش , رجاء ، صفحات مجهولة في الأدب العربي المعاصر، ٢١٤.

المصادر:

- حسين ، مسلم حسب ، (١٩٩٠) ، الرمز في الشعر العراقي المعاصر (رواد الشعر الحر) ، رسالة ماجستير مقدمة إلى كلية الآداب ــ جامعة البصرة .
- الخالدي ، علي محمد حسين ، (١٩٨٨) ، الشعر النسوي في العراق (مضامينه وخصائصه الفنية من الحرب العالمية الثانية حتى ثورة تموز ١٩٥٨) ، رسالة ماجستير مقدمة إلى كلية الآداب الجامعة المستنصرية .
- الطائي ، علي ، (١٩٩٥) ، نازك الملائكة ، دار الشؤون الثقافية العامة ، بغداد .
- عباس ، إحسان (دكتور) ، (١٩٧٨) ، اتجاهات الشعر العربي المعاصر ، عالم المعرفة ، سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، الكويت ، مطابع اليقظة .
- الكبيسي ، طراد ، (١٩٧٥) ، شجر الغابة الحجري ، دار الحرية للطباعة ، بغداد .
- الملائكة ، نازك ، (١٩٦٠) ، عاشقة الليل ، منشورات المكتب التجاري للطباعة والتوزيع والنشر ، بيروت ، ط٢ .
- الناصر، محمد قاسم نعمه ، (١٩٩٧) ، الأثر الإسلامي في الشعر العراقي الحديث (مرحلة الرواد) ، رسالة دكتوراه مقدمة إلى كلية الآداب ــ جامعة البصرة .
- النقاش ، رجاء ، (١٩٧٦) ، صفحات مجهولة في الأدب العربي المعاصر، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، لبنان ، ط ١ .